الشيخ طاهر الجزائري
داعية الإصلاح في بلاد الشام

مرزوق العمري
كلية العلوم الإسلامية
جامعة باتنة – الجزائر

من الظواهر التي عرفها تاريخ الجزائر الحديث ظاهرة الهجرة، وهي هجرة متميزة كونها هجرة إلى بلاد المشرق، وهي عادة ما تكون هجرة إما إلى الحج، وإما لطلب العلم، وإما للجهاد، وقد تكون لهذه الأرض جميعا. وفي غالب الأحيان ما يؤول الأمر بهؤلاء الذين هاجروا إلى الاستقرار في البلاد التي هاجروا إليها كمصر، أو الحجاز، أو الشام. وكثيرا ما أتيح لهؤلاء الذين هاجروا واستقروا في تلك الديار أن اثبتوا وجودهم من خلال إسهاماتهم في أعمال علمية جليلة كتصديهم للتدريس، أو الكتابة والتأليف والانخراط في العمل الإصلاحي الذي عرفه المجتمع الإسلامي الحديث.

وإذا ذكر الإصلاح في بلاد المشرق، وذكر أعلامه في بلاد الشام يذكر الشيخ طاهر الجزائري الذي اشتهر هناك أكثر مما اشتهر في الجزائر موطنه الأصلي. من هنا يكتسي الحديث عن الشيخ طاهر الجزائري، والبحث في تراثه أهمية خاصة تجعل المهتم بالنهضة الإسلامية الحديثة لا يمكنه أن يتحدث عن النهضة والإصلاح في بلاد الشام دونما ذكر للشيخ طاهر الجزائري.

نسبه:

هو الشيخ طاهر بن صالح بن أحمد بن موهوب السمعوني الوغليسي الجزائرى، فوالده هو الشيخ صالح بن أحمد الوغليسي، وقد كان عالما من العلماء. قال عنه الزركلي في الأعلام بأنه: فاضل من الجزائر قدم إلى دمشق، ومن آثاره رسالة في غرائب الخلاف بين الأئمة[1] وينتهي نسبه إلى السيد عبد الله الكامل بن السيد الحسين المثنى بن السيد الحسن السبط بن الإمام علي رضي الله عنه. ونتيجة لمضايقات تعرض لها السيد عبد الله الكامل رحل إلى بلاد المغرب وكان له خمسة أبناء وولد سادسهم في المغرب وهو إدريس ومنه الأدارسة الذين عاد بعضهم إلى المشرق وبقي بعضهم في المغرب، ومن الذين بقوا في بلاد المغرب تنحدر أسرة الشيخ طاهر التي هاجرت إلى الشام في القرن 13 هـ/ 19 م، وقد كانت هجرتها إلى المشرق سنة 1263 هـ/ 1846 م[2].

1 – خير الدين الزركلي: الأعلام، دار العلم للملايين، بيروت ط 5 (1980)، ج 6، ص 165.

2 – انظر الترجمة التي وضعها له [illegible] الصديق، في كتابه الجواهر الكلامية، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر،

والسمعوني نسبة إلى بني سمعون وهي القرى التي كانت تسكنها عائلة الشيخ طاهر وتقع بضواحي مدينة بجاية في الجزائر.

الهجرة إلى بلاد الشام:

أما عن هجرة عائلته إلى المشرق واختيارها ديار الشام تحديدا فقد كانت محل دراسة عند المؤرخين، من خلال تركيزهم على ظاهرة الهجرة ودوافعها والديار التي كان يهاجر إليها الجزائريون؛ أما عن ظاهرة الهجرة فقد كانت طبعا إبان الاحتلال الفرنسي للجزائر ويفهم من هذا أن سببها السياسة الاستعمارية التي حرمت الجزائريين من كل حقوقهم، الأمر الذي اضطر الكثير منهم إلى الهجرة. يقول الدكتور أبو القاسم سعد الله: «امتاز عهد بيجو (1841 / 1947م) بتهجير من نوع آخر لأعيان الجزائر، وهو النفي والطرد خارج الوطن، فقد حكم على كل مشبوه وكل زعيم سياسي أو إداري من الجزائريين لم يتعاون صراحة مع العدو، وأجبره على مغادرة وطنه وعائلته»[3].

ندرك من خلال هذا أن الهجرة كانت تهجيرا قسريا وليست هجرة اختيارية، وقد امتازت هجرة الجزائريين في القرن التاسع عشر بكونها هجرة إلى بلاد المشرق بدل أوروبا أو أمريكا، وذلك لاعتبار ديني بالدرجة الأولى؛ أي أنها كانت فرارا بالدين. يقول الأستاذ سهيل الخالدي: «لو سألت أحد الجزائريين خلال النصف الأول من القرن الماضي – القرن 19 م– لم تتوجه إلى المشرق بينما غيرك يتوجه إلى أمريكا بحثا عن الرزق والأمن والفرص ؟، لربما قال لك بأنه يكفيه أن يعيش في أرض الإسلام ويساكن أهل العروبة؛ إذ معهم الرزق والأمن والفرص»[4].

وقد كانت هجرة عائلة الشيخ طاهر الجزائري إلى بلاد الشام سنة 1285 هـ/ 1846م، أي أنها كانت قبل هجرة الأمير عبد القادر، وهذا خلاف ما ذهب اليه الشيخ عبد الفتاح أبو غدة الذي ذكر أن هجرة والده كانت مع الأمير عبد القادر[5] وما دام أنها تمت في هذه الفترة يرجح أن هذه العائلة تعرضت للتهجير الذي مارسه الجنرال بيجو على الجزائريين والذي تمت الإشارة إليها، بل هذا ما يؤكده الدكتور أبو القاسم سعد الله حينما يذكر الفئات التي خضعت للتهجير على عهد بيجو أنها تمثلت في : الأعيان والقواد، والعلماء، ويذكر أن الشيخ صالح السمعوني والد الشيخ طاهر كان أحد هؤلاء[6].

بلا تاريخ، ص 11.

3 – أبو القاسم سعد الله: الحركة الوطنية الجزائرية، دار الغرب الإسلامي ط 4، (1992)، ج2، ص 198.

4 – سهيل الخالدي نقلا عن أبو القاسم سعد الله: الحركة الوطنية الجزائرية، ص 192.

5 – أنظر الترجمة التي وضعا الشيخ عبد الفتاح أبو غدة، في كتاب توجيه النظر إلى أصول الأثر، مكتبة المطبوعات الإسلامية بحلب، ج1، ص 16.

6 – أبو القاسم سعد الله: الحركة الوطنية الجزائرية، ص 195.

مولده ونشأته:

قصدت عائلة الشيخ طاهر بلاد الشام واستقرت بدمشق التي ولد بها الشيخ طاهر ليلة الأربعاء 20 ربيع الأول سنة 1268 هت/ 1851 م وبها تعلم على أيدي علماء كبار كان في مقدمتهم والده الشيخ صالح السمعوني الذي بذل في سبيل تربيته وتعليمه جهدا كبيرا، ثم التحق بالمدرسة الجقمقية[7] الابتدائية وفيها تتلمذ على يد علماء مثل الشيخ عبد الرحمن البستاني الذي أخذ عنه العربية والفارسية والتركية، ثم اتصل بشيخ عصره عبد الغني الغنيمي الميداني (1222 هـ/ 1298 هـ) وهو فقيه أصولي نظار، قال عنه المؤرخ محمد كرد علي بأنه كان: «على جانب عظيم من التقوى والورع، يمثل صورة من السلف الصالح، فطبع الشيخ طاهر بطبعه، وأنشأه على الأصول العلمية الدينية، وكانت دروسه دروسا صافية المشارب، يرمي فيها إلى الرجوع بالشريعة إلى أصولها والأخذ من آدابها بلبابها، ومحاربة الخرافات، وإنقاذ الدين من المبتدعين والوضاعين»[8].

وقد درس عليه حاشية السعد التفتازاني، والتلويح على التوضيح لصدر الشريعة رحمه الله عليهما. كما درس العلوم الطبيعية والرياضية والفلكية والتاريخية والأثرية، وما إن بلغ الثلاثين حتى أتقن أكثر لغات الشرق مثل: التركية، الفارسية، السريانية، الحبشية، العربية والأمازيغية لغة أهله الأصلية، بالإضافة إلى اللغة الفرنسية كلغة غربية[9]

وهذه الموهبة وهذا النبوغ جعلاه يحظى باحترام الكثيرين. وصار يشهد له بغزارة العلم تحصيلا وإنتاجا. يقول المؤرخ محمد كرد علي: «كان متضلعا في علوم الشريعة، وتاريخ الملل والنحل، منقطع القرين في تاريخ العرب والإسلام، وتراجم رجاله ومناقشات علمائه ومناظراتهم وتأليفهم ومراميهم، وكان إماما في علوم اللغة والأدب، وهو هكذا في علوم لشريعة لاسيما في التفسير والحديث والأصول إنه خزانة علم متنقلة[10]. ولا أدل على ذلك من الكتب الكثيرة التي تركها والتي توزعت على مختلف الفنون والعلوم الإسلامية.

شخصيته:

أما عن شخصيته فجل الذين ترجموا للشيخ طاهر الجزائري ذكروا أنه اتصف بكل مواصفات الشخصية القوية من حدة ذكاء، وغزارة علم ورهافة حس، وعلو همة، بالإضافة إلى القوام البدني؛ فاهتموا بمختلف صفاته الخلقية والخلقية على حد سواء؛ فعن صفاته الخلقية فقد وصف بأن

7 – نسبة إلى نائب دمشق سيف الدين جقمق

8 – مقال من الأنترنت بعنوان: الشيخ طاهر الجزائري رائد التجديد الديني في بلاد الشام في العصر الحديث. أنظر موقع: www. Islamweb.net

9 – عمر رضى كحالة : معجم المؤلفين، مؤسسة الرسالة، ط1 (1414هـ/1993م)، ص 11.

10 – أنظر موقع: www. Islamweb.net

حسن الطلعة، واسع الجبهة، معتدل القامة، حنطي اللون، كث اللحية، أسود الشعر والعينين، سريع الحركة، كما أنه وصف بعصبية المزاج، وهذه عموما صفات الفرد الجزائري. كما أنه عاش ومات دون أن يتزوج، وقد اعتبر مترجموه عدم ارتباطه بالأسرة هو الذي جعله يعطي عمره كله للعلم فتفرغ له بشكل كلي، كما أنه كان يتساهل في مظهره ولا يأبه للتأنق، وكان يحب السباحة والسياحة والمشي على الأقدام رياضة. وكان لا ينام إلا قليلا فيقضي ليله ساهرا ويواصله بالنهار بحثا ودراسة وتعليما.

أما صفاته الأخلاقية فقد عرف بعفة النفس فلا يأخذ شيئا إلا بمقابل، وكانت للكتاب عنده قيمة كبيرة وما يؤكد ذلك حرصه الشديد على الكتاب حتى إذا أراد بيعه فلم يكن يرضى أن يبيع كتبه لأي كان على الرغم من الظروف القاهرة التي ألمت به في أواخر حياته والتي أجبرته على بيع كتبه ليعيش منها، لكنه كان ينتقي الشخص الذي يبيع له كتبه، فكان لا يبيعها إلا لمن يقدرها قدرها بأن ينتفع وينفع بها، مهما كان الثمن الذي يدفع له. كما عرف الشيخ طاهر الجزائري بالزهد فقد كان بعيدا عن مظاهر الترف والأبهة على الرغم من صداقاته الكثيرة وعلاقاته الواسعة، وتنقلاته على الرغم من ذلك لكنه كان لا يأبه بشيء من أمور المظهر، وتجلى زهده على مستوى آخر طبع علاقاته فكان لا يظاهر ظالما لغنم يصيبه، ولا صحب غنيا للانتفاع به أو بغناه وهذا لأن الشهرة لم تكن تهمه.

وكان حريصا على اغتنام وقته والانتفاع به، وقد اغتنم عمره في طلب العلم ونشره وهذا ما جعله يدمن على شرب القهوة حتى يجافي النوم ما أمكنه ذلك، ومن مظاهر حرصه على طلب العلم أنه كان يحمل بعض الكتب التي تعتبر كتب جيب ليقرأ حيث تتيسر له القراءة كي لا يضيع شيء من وقته، وفي هذا يقول أحد تلامذته: «كان لا يذر مزاولة العلم في كل وقت وحين ما بين تصنيف وتنقيح، أو بحث وتنقيب، أو مذاكرة ومطالعة، وإذا استحسن كتابا يعاود مطالعته مرارا عديدة»[11]. وعلى الرغم من هذا الإدمان على المطالعة اثر عنه أنه كان ينصح غيره بالإقلال من القراءة أيام العطلة والإكثار من الرياضة والتنقل في الحدائق؛ ذلك أن الانعكاف على الكتب يحبب الوحشة والانعزال عن الناس، فتصبح نفورا من كل «جليس»[12].

مما اشتهر به أيضا طيب الكلام فكان لا يتفوه بما ينبو عنه السمع أو يبادر إلى هجر أحد وهذا على الرغم من حدة طبعه كما سبقت الإشارة، فقد كان: «لا يعرف الهجر، ولا يسب سبا قبيحا، هذا مع حدة ظاهرة فيه. إذا صفا ذهنه تفصح عبارته في محاضرته، وإلا فيعتريها شيء من اللكنة المغربية ممزوجة بالعامية الدمشقية، ولم يجر لسانه بجملة واحدة باللهجة المصرية مع أنه أقام في مصر أعواما كانت تكفي لتقلب فيه اللهجة الشامية إلى اللهجة المصرية، وله تعبيرات

11 – نقلا عن الشيخ عبد الفتاح أبو غدة، أنظر توجيه النظر، ج1، ص 22.
12 – أنور الجندي، نقلا عن الشيخ عبد الفتاح أبو غدة، أنظر توجيه النظر، ج1، ص 22/23.

خاصة وأساليب في مصطلحاته، ونبراته لطيفة تحلو من فمه، وما أحصي عليه أن نطق يوما بفحش أو هراء أو سب، أو استعمل ما ينافي الأدب ويقدح المروءة، ويمزح ويتندر أحيانا»[13].

مما اتصف به الشيخ طاهر الجزائري صداقاته الكثيرة، فإيمانه بالعلم وضرورة تبليغه جعله يقدم العلم لطالبه مهما كان جنسه أو معتقده، وهذا الذي جعله يعقد صداقات كثيرة مع غير المسلمين بمن فيهم كبار المستشرقين في العصر الحديث من أمثال: مرغليوث، وجولدزيهر وغيرهم، وحتى بعض اليهود والنصارى، بالإضافة إلى علاقاته بالمسلمين من مختلف المذاهب والفرق.

آراؤه:

وقد كان لهذه المواصفات التي حباه الله بها، ثم لعلمه الغزير الأثر الجلي في مواقفه وآرائه في مسائل كثيرة، تلك الآراء التي تعتبر حكما تلخص لنا تجربة الشيخ طاهر في ميادين الحياة كلها؛ فمثلا عن سر النجاح والإخفاق في الحياة كان يقول: «إذا أردتم النجاح فلا تلقوا بأذانكم لم يقال فيكم من مدح وقدح، وسيروا على الهدف بخطى ثابتة تفلحوا، واتقوا إضاعة الوقت بالقال والقيل»، وفي هذا عمل بحديث النبي صلى الله عليه وسلم الذي نهى فيه القيل والقال، بل كان الشيخ طاهر يرى أن رضى الناس جميعا على الإنسان نقيصة وليست ميزة تحسب له؛ لأن الذي أدرك رضى الناس لا يعدو أن يكون منافقا لعوبا، لذا كان يقول: «لو بلغني أن أهل البلد كلهم راضون عني، ليس لي منهم عدو لعددت نفسي ساقطا؛ لأن من يرضى عنه كل الناس لا يكون إلا خداعا منافقا، يظهر لكل واحد بما يرضيه، والمصلح لا يخلو من أعداء وأصحاب». وبخصوص مطابقة الشر للعلانية في حياة الفرد كشرط من شروط النجاح والاتزان نجده يقول: «إياكم أن تخطوا في رسائلكم إلى إخوانكم ما لا تريدون أن تقولوه جهرة، فكل ما يكتب لا يؤمن نشره، يفتضح به صاحبه فيؤذيه ولا ينفعه»[14].

وعن العلم وأهميته وحاجة الإنسان إليه في كل الأحوال يدعو إلى ضرورة تعلم العلم مهما كان، حتى وإن كان الإنسان لا يدرك نفعه في العاجل، ولذلك عليه أن يتعلم من العلم ما أتيح له فيقول: تعلموا ما تيسر لكم تعلمه ولو لغة مالطة، فقد يجئ زمن تحتاجون إليها وإياكم أن تقولوا: إنها لا تدخل في اختصاصنا، فالعلم كله نافع والمرء يتعلم ما حسنت به الحياة . . . ومما كان يحث عليه أن لا يبقى أهل العلم ينتظرون منصبا أو وظيفة يعتمدونها في معاشهم بل كان يرى أن يتعلموا إلى جانب العلم الحرف التي يحصلون بها العيش الكريم فيقول: تعلموا العلم لله ولفائدة العلم ولذته، وليكن لكل واحد منكم صناعة أو تجارة، أو زراعة تعيشون منها أحرارا حتى لا تحتاجوا إلى قرع أبواب الملوك والحكومات، فإذا احتاجوكم نادوكم، وإلا فأنتم بما لكم من أسباب المعايش

13 – أنظر الترجمة التي وضعا الشيخ عبد الفتاح أبو غدة، توجيه النظر، ج1، ص 19.
14 – محمد الصالح الصديق، الجواهر الكلامية، ص 21.

لا تحتاجونهم[15] .

وفي مجال الإصلاح والعمل النهضوي يرسم الشيخ طاهر نظرة متميزة في كيفية الخروج من دائرة التخلف واللحاق بالأمم المتقدمة، هي ذات الطريقة التي صارت تعرف في الكتابات المعاصرة بالطريقة التي تجمع بين الأصالة والمعاصرة فيقول: إن أفضل الطرق في إنهاض شعب تثقيفه بثقافة العصر، وثقافة الدين، وهذه طريق طويلة ولكنها أمينة الفائدة لا تخرج عن طريق النشوء الطبيعي، أما القول بالتوارث وطرق العنف فقد تنجح، ونجاحها قليل وليست مضمونة ... وكان يرى أنه من شروط نجاح العمل النهضوي الاقتباس والأخذ عن الأمم المتقدمة فيما ينفع وعدم الانغلاق على الذات فيقول: إن الاقتباس عن الأمم المترقية دليل على النباهة لا كما يظن البله من أن في الاقتباس غضاضة. ونريد بالاقتباس ما يشعر به هذا اللفظ من تلقي الأمور النافعة[16] .

جهوده الإصلاحية:

هذه المواقف وهذه الآراء للشيخ طاهر الجزائري لا شك أنها تنم عن سعة الأفق وغزارة العلم، وعمق التجربة، والتوازن في الموقف، وهذه خصائص العلماء العاملين، وهو أحدهم فكل الذين ترجموا له يوردون ذكره على أنه أحد رجالات الإصلاح في بلاد الشام في العصر الحديث. ولهذا نجد الدكتور أبو القاسم سعد الله في حديثه عن دور المهاجرين الجزائريين في النهضة العربية في بلاد الشام نجده يذكر إلى جانب الأمير عبد القادر وأسرته يذكر الشيخ طاهر الجزائري فيقول: «لم تكن أسرة الأمير وحدها في الميدان، فقد ظهرت إلى جانبها أسماء لامعة من المهاجرين ساهم أصحابها في عدة ميادين تهم القضية العربية، ومن أبرزهم بلا منازع الشيخ طاهر بن صالح الجزائرى المعروف بالطاهر السمعوني، فقد كان لهذا الشيخ فضل كبير في بعث الثقافة العربية، وتكوين جيل من الأدباء والمفكرين والسياسيين، بالإضافة إلى دوره في حزب اللامركزية وإنشائه، وإدارته لعدة مؤسسات مثل: المكتبة الظاهرية»[17] .

من هنا ندرك أن الجهود الإصلاحية للشيخ طاهر كانت متنوعة ولكن المجال الذي طغى على هذه الجهود هو مجال التربية والتعليم والذي توزع بين التدريس والتفتيش، وإنشاء المدارس والمكتبات، وإنشاء الجمعيات الخيرية، وتأليف الكتب والكتب المدرسية خاصة، والانخراط في المجامع العلمية، بالإضافة إلى الندوة الفكرية التي كان يعقدها في أواخر حياته، والتي كان يؤمها نخبة من المفكرين والعلماء .. وغير ذلك.

أما عن التدريس فقد تصدى له لأول مرة في المدرسة الظاهرية الابتدائية، كما ساهم في فتح

15 – لمرجع نفسه، ص 21/ 22.

16 – المرجع نفسه، ص 21.

17 – أبو القاسم سعد الله، آراء وأبحاث في تاريخ الجزائر، دار الغرب الإسلامي، ط1 (1996)، ج4، ص 198.

نحو إحدى عشرة مدرسة تسع منها خصصت للذكور وانتظم في سلكها 800 طالب، واثنتان منها للبنات وضمتا حوالي 200 طالبة، ولم يطل الوقت لتعيينه مفتشا عاما على المدارس الابتدائية في المرحلة التي كانت فيها بيروت من متصرفيات دمشق، فبذل جهدا كبيرا في خدمة التعليم في هذه المرحلة، قال عنها الأستاذ محمد كرد علي: «وفي هذه الحقبة ظهر نبوغ شيخنا وعبقريته في تأسيس المدارس، واستخلاص القديمة من غاصبيها، وحمل الآباء على تعليم أولادهم، ووضع البرامج وتأليف الكتب اللازمة»[18].

كما ساهم في تأسيس الجمعية الخيرية وقد ساعده في ذلك العلامة علاء الدين عابدين، وهي الجمعية التي كان هدفها الرئيسي مواجهة تحدي النشاط التعليمي للإرساليات التبشيرية التي توالت على دمشق، وحظيت هذه الجمعية التي أسسها الشيخ طاهر الجزائري بدعم الوالي التركي في ذلك الوقت مدحت باشا، وقامت بفتح مدارس كثيرة لمجابهة العمل التبشيري النصراني. وقد تحولت هذه الجمعية في مرحلة لاحقة إلى ديوان للمعارف، وعين الشيخ طاهر مفتشا له.

وفي هذه المرحلة الثانية من عمر الجمعية قام الشيخ بعدة أعمال جليلة منها: إقناع المسلمين بتعليم أبنائهم وبناتهم، وكان إقبالهم على التعلم أن زاد من إنعاش الحركة التعليمية في بلاد الشام. كما أنشأ مطبعة حكومية قامت بطبع الكثير من الكتب المدرسية التي اعتمدت كمقررات للطلبة، ومن الأمور المهمة التي تحسب له في مجال التعليم دعوته إلى تعلم العلوم جميعا دينية ودنيوية، فلم يفصل بينها، وهذا لأهمية العلوم الدنيوية في العمل النهضوي، ولذلك يمكن القول إن جهوده في ميدان التعليم لم تكن تقليدية بحتة تعتمد على الطرق السائدة التي عرفت في المشرق العربي. بل فيها جوانب تجددتة منها هذا الجانب ولعل ما جعل الشيخ يهتم بهذا الجانب بالإضافة إلى تكوينه الإسلامي الأصيل إطلاعه على الثقافة الغربية من خلال امتلاكه للغة الفرنسية واحتكاكه بالمثقفين من مختلف التيارات والمشارب بما في ذلك المستشرقين.

من انجازاته في ميدان الإصلاح أيضا تأسيسه لدار الكتب الظاهرية نسبة إلى الظاهر بيبرس القائد المملوكي سنة 1296 هـ، في البداية جمع فيها مخطوطات بعض المدارس التي كانت مبعثرة ثم اتسعت إلى أن أصبحت من أهم المكتبات الإسلامية في المشرق العربي. وبعد مدة أنشأ في القدس مكتبة أخرى هي المكتبة الخالدية نسبة إلى الشيخ راغب الخالدي والتي احتوت كتبه وكتب أسرته، ونتيجة نشاطه في تأسيس المكتبات عهدت إليه الحكومة العثمانية سنة 1879 م بالتفتيش على خزائن الكتب في سوريا والقدس، ثم أقيل منها عام 1886م، أي أنه مكث في مهمته هذه سبع سنوات. وعرضت عليه مناصب أخرى خارج مجال التعليم، لكنه رفض مخافة أن يكون فيها تأييد للظلم والجهل.

من أهم ما ميز النشاط التعليمي للشيخ طاهر الجزائري تأسيسه لحلقة أو لندوة فكرية، وهي

18 – عبد الفتاح أبو غدة، ص 17.

الندوة التي عرفت باسمه (حلقة الشيخ طاهر) والتي كانت تعني بمناقشة محاور علمية كثيرة منها محور تعلم علوم الغرب، وكان لها صداها فكانت يؤمها كبار مثقفي سوريا ومعلميها منهم: الشيخ جمال الدين القاسمي، ومحب الدين الخطيب، والأستاذ محمد كرد علي . . . وغيرهم.

وفي سنة 1325 هـ/ 1907 م تعرض الشيخ طاهر لمضايقات من طرف السلطة فهاجر إلى مصر، واستقبل بترحاب كبير من طرف علمائها وأدبائها ، منهم أحمد تيمور باشا وأحمد زكي باشا، ومكث بمصر ثلاث عشرة سنة، وعرضت عليه مناصب هناك فرفض ولكنه اشتغل في تحرير بعض الصحف، وتخللت إقامته بمصر زيارة إلى الجزائر حوالي سنة 1912 م، وبها نزل ضيفا على الشيخ محمد السعيد بن زكري المفتي المالكي والأستاذ بالمدرسة الثعالبية[19].

وفي مصر أصيب بمرض الربو الذي أثقله فعاد إلى دمشق سنة 1338 هـ/ 1919 م وعين فور عودته مديرا عاما لدار الكتب الظاهرية وعضوا في المجمع العلمي العربي، ولكنه لم يلبث بعد عودته هذه إلا أربعة أشهر، وتوفي بعدها رحمة الله تعالى عليه وكان ذلك يوم 5 جانفي 1920 م.

وبوفاته فقدت الأمة أحد علمائها الكبار، ورثاه أهل العلم والفكر ومنهم الأستاذ أحمد زكي باشا بكلمة مما جاء فيها: « كنت أرى فيه الأثر الباقي، والمثال الحي، والصورة الناطقة لما كان عليه سلفنا الصالح من حيث الجمع بين الرواية والدراية، في كل المعارف الإسلامية وبين الدأب على نشرها بعد التدقيق والتمحيص واستثارة خباياها وإبراز مفاخرها»[20] .

آثاره:

من أهم ما أنجز الشيخ الكتب الكثيرة التي ألفها والتي بقيت لأجيال المسلمين بعد وفاته بعدما انتفع بها جيله في حياته، وقد توزعت كتاباته على مختلف العلوم الإسلامية فهو بذلك يذكرنا بعلماء الإسلام الأوائل الذين تميزوا بالموسوعية من أمثال: الرازي والغزالي وابن تيمية وغيرهم، وقد ترك الكثير من الكتب بعضها مطبوع وبعضها الآخر لا يزال مخطوطا، وقد اعتبر أسلوبه في الكتابة من الأساليب التجديدية إذا ما قورن بأساليب عصره، وأهم جانب تجديدي هو تبسيط الأسلوب وتقريب العلم إلى المبتدئين، فكان أسلوبه خاليا من الحشو من كثرة النقول والردود وغير ذلك من مظاهر الكتابة الكلاسيكية. وهذه الكتب هي:

1- إتمام الأنس بعروض الفرس في علم العروض.
2- إرشاد الألباء إلى تعليم ألف باء في علم التربية.
3- الإلمام بأصول سيرة النبي عليه الصلاة والسلام.
4- أمثال العرب.

19 - محمد الصالح الصديق، الجواهر الكلامية، ص 16.
20 - المرجع نفسه، ص 22.

5- بديع التخليص وتخليص البديع.
6- التبيان لبعض المباحث المتعلقة بالقرآن.
7- تدريب اللسان على تجويد البيان، وهو في علم التجويد.
8- التذكرة الظاهرية.
9- التسهيل المجاز إلى فن المعمّى والألغاز.
10- تفسير القرآن الحكيم.
11- التقريب إلى أصول التعريب.
12- تمهيد العروض إلى فن العروض.
13- توجيه النظر إلى أصول أهل الأثر.
14- جلاء الطبع إلى معرفة مقاصد الشرع
15- الجواهر الكلامية في العقيدة الإسلامية
16- الجوهرة الوسطى في قواعد العقائد.
17- رسالة في البيان
18- رسالة في النحو
19- رسالة وجداول في الخطوط القديمة والحديثة.
20- شرح ديوان خطب ابن نباتة
21- عقود اللآلي في الأسانيد العوالي.
22- الفوائد الجسام في معرفة خواص الأجسام.
23- الكافي - وهو معجم لغوي.
24- كتاب في التعليم الابتدائي
25- كنانيش فيها خلاصة ما طالعه من الأسفار
26- مبتدأ الخبر في مبادئ علم الأثر
27- مختصر أدب الكاتب
28- مختصر أمثال الميداني
29- مختصر البيان والتبيين
30- مد الراحة إلى أخذ المساحة
31- مدخل الطلاب إلى علم الحساب
32- مقدمة الكافي
33- المنتقى من الذخيرة لابن بسام
34- منية الأذكياء في قصص الأنبياء.

الهوامش:

1- خير الدين الزركلي: الأعلام، دار العلم للملايين، بيروت ط 5 (1980)، ج 6، ص 165.

2- انظر الترجمة التي وضعها له محمد الصالح الصديق، في كتابه الجواهر الكلامية، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، بلا تاريخ، ص 11.

3- أبو القاسم سعد الله: الحركة الوطنية الجزائرية، دار الغرب الإسلامي ط 4، (1992)، ج2، ص 198.

4- سهيل الخالدي نقلا عن أبو القاسم سعد الله: الحركة الوطنية الجزائرية، ص 192.

5- أنظر الترجمة التي وضعا الشيخ عبد الفتاح أبو غدة، في كتاب توجيه النظر إلى أصول الأثر، مكتبة المطبوعات الإسلامية بحلب، ج1، ص 16.

6- أبو القاسم سعد الله: الحركة الوطنية الجزائرية، ص 195.

7- نسبة إلى نائب دمشق سيف الدين جمقمق

8- مقال من الأنترنت بعنوان: الشيخ طاهر الجزائري رائد التجديد الديني في بلاد الشام في العصر الحديث. أنظر موقع: www. Islamweb. net

9- نقلا عن الشيخ عبد الفتاح أبو غدة، أنظر توجيه النظر، ج1، ص 22.

10- أنور الجندي، نقلا عن الشيخ عبد الفتاح أبو غدة، أنظر توجيه النظر، ج1، ص 22/23.

11- أنظر الترجمة التي وضعا الشيخ عبد الفتاح أبو غدة، توجيه النظر، ج1، ص 19.

12- محمد الصالح الصديق، الجواهر الكلامية، ص 21.

13- لمرجع نفسه، ص 21/ 22.

14- المرجع نفسه، ص 21.

15- أبو القاسم سعد الله، آراء وأبحاث في تاريخ الجزائر، دار الغرب الإسلامي، ط1 (1996)، ج4، ص 198.

16- عبد الفتاح أبو غدة، ص 17.

17- محمد الصالح الصديق، الجواهر الكلامية، ص 16.

18- المرجع نفسه، ص 22.